

قصة حادثة للكاتب نجيب محفوظ كان يتكلم في تليفون الدُكان بصوت مُرتفع، يُسمَع صوتُه رغم ضوضاء شارع الجيش الصاخب، وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدُكان ليبعد ما أمكن عن الضوضاء، ثم ختم حديثه بقوله: "إنتظرنى سأحضر فوراً". كان في الستين أو نحوها، طويل القامة نحيلها وروّي الجبهة والعينين. مُكْوَر الذقن وأما صلعته فلم يبق فوق مرآتها إلا جذور شعر أبيض مثل منابت شعر ذقنه، وقد أفصح مظهره عن إهمال صريح نتيجة للسن أو الطبع أو نسيان اللذات، علي ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج. وبدا أنه ينظر إلي الداخل لا إلي الطريق ثم مال يُمَنة بمحاذاة صف من اللوريات الواقفة نسق التوار حتى وجد منفذاً إلي الشارع، مرق من المنفذ ليعبر الشارع إلي ضفته الأخرى، وما كاد يجاوز مُقدمة اللوري الأخير حتى شعر بسيارة فوراً تندفع نحوه بسرعة فائقة. وقال أحد الشهود فيما بعد إنه كان عليه أن يتراجع بسرعة وإنه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة، ولكنه لسبب ما لعلهُ المفاجئة أو سوء التقدير وثب إلي الأمام وهو يهتف "ياساتر يارب" وجرت الحوادث متلاحقة. نَدَّت عن الرجل صرخة كالعواء وفي ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة الواقفين علي التوار، وفوق إفريز محطة الترام صدر عن فرملة الفوردي صوت محشرج متشنج ممزق وهي تزحف علي الأرض بعجلات متوقفة جامدة وهرع نحو الضحية في ثوان عشرات وعشرات كأسراب الحمام، حتى تكون منهم سور غليظ منبع وانتشر في المنطقة الهرج، ولم ينبض جسم الرجل بحركة واحدة، وكان منكفئاً علي وجهه ولا يجرؤ أحد علي لمسه وإحدي رجله ممدودة إلي آخرها والأخري منثنية منحسرة البنطلون عن ساق نحيلة غزيرة الشعر، وقد فقدت حذائها، وكأن الأمر لا يعنيه البتة. الرجل وهو يرتفع في الفضاء امتاراً ثم يهوي فوق الأرض كشيء، أندفع هو من أمام اللوري فجأة، وبسرعة وبدون أن ينظر إلي يساره كما يجب"، وإذا لم يجد وجهها مستجيبا عاد ليقول بلهجة خطابية: "لم يكن بإمكانني تفادي الصدمة". لعلها إصابة بسيطة" "عند فمه انظر. "كل ساعة حادثة من هذا النوع" وجاء شرطي مسرعاً وفتح له وقع قدميه ثغرة في السور الآدمي، نفذ منها وهو يصيح في الناس أن يبتعدوا خطوات. خطوات فقط وعينهم لا تتحول عن الرجل ولا تخفي حدة تطلعها وإشفاقها وقال إنسان: "سبقي هكذا حتى يموت ونحن لا نفعل شيئاً" فأجابه الشرطي بلهجة رادعة "أقل لمسة قد تقتله، وبوليس النجدة والإسعاف في الطريق إليه" واعترض الحادث جانب الطريق واضطرت السيارات إلي الإلتفاف حول السور البشري مشاركة الترام في ممشاة. فضاقت بها حتى تحركت في بضع شديد وتجمعت في صفوف ممتدة ومتداخلة وهي تصرخ وتعوي بلا فائدة، ومن ركبها تطلعت أعين إلي الضحية في اهتمام وأعين تجنبت النظر في جذع. وجاء بوليس النجدة وراء صفارته الحلزونية فاتسعت الحلقة وغادرت القوة السيارة إلي الرجل الملقي وكان الضابط حاسماً وحازماً، فأصدر أمراً بتفريق المتجمعين، وتفحص الرجل بنظرة شاملة وسأل الشرطي: "ألم تحضر الإسعاف؟" وإذا لم تكن ثمة ضرورة إلي السؤال فإنه لم يلق بالآ إلي الجواب، وتساءل مرة أخرى: "هل من شهود؟" فتقدم ماسح أحذية وسائق لوري وصبي كباجي كان عائداً بصينية فارغة، وأعادوا علي مسمع الضابط ما حدث منذ ما كان الرجل المجهول يتكلم في التليفون. وجاءت سيارة الإسعاف وأحاط رجالها بالرجل، وتفحصه رئيسهم بعناية وحذر وهو يجلس القرفصاء، ثم نهض متوجهاً إلي الضابط فبادره هذا قائلاً: "أظن يجب نقله إلي الإسعاف"، فقال الآخر بلهجة ذات أثر لا يختلف عادة عن الأثر الذي يحدث عن جرس سيارته: "بل يجب نقله إلي مستشفى الدمرداش" وأدرك الضابط ما يعنيه ذلك علي حين استطرده رجل الإسعاف قائلاً: "أعتقد أن الحالة خطيرة جداً". وعندما أُرقد الرجل بحجرة الفحص في مستشفى الدمرداش، كانت طلّائع الليل تزحف كالجبال، ثم التفت إلي مساعده قائلاً: "إصابة خطيرة في الرئة اليسرى، تهدد القلب مباشرة" ثم شهق شهقة خفيفة واستكن، وكان الطبيب يراقبانه، فالتفت المدير نحو مساعده وهو يقول انتهى. وجاء ضابط النقطة والراجل ما يزال راقداً بكامل ملابسه، عدا فردة الحذاء المفقودة، فقال الضابط وهو يوميء إلي الفقيه: "وشهادة الشهود ليست في صالحه"، ثم وهو يقترب من السرير: "أرجو أن نستدل علي شخصيته" وشرع في عمله علي حين بسط له الشاويش المرافق له ورقة فوق منضدة، وتأهب بدوره لتسجيل المحضر، ودس الضابط يده برفق في جيب الجاكتة الداخلي فاستخرج حافظة نقود قديمة متوسطة الحجم ومضي يفتشها جيبا جيبا، رويته للدكتور فوزي سليمان"، وألقي نظرة عابرة علي أسماء الأدوية، ولكنه لاحظ وجود كتابة علي ظهرها وجره بصره عليها بلا إرادة فإذا بها "البيض والدهنيات ممنوع، ويستحسن تجنب المنبهات كالشاي والقهوة والشيكلاته" وابتسم الضابط ابتسامة باطنية، إذ أن تعليمات شبيهة صدرت إليه من طبيبه في نفس الشأن، وانتقل إلي الجيب الداخلي وما لبث أن قال في فتور: "ثلاثة قروش ونصف عملة معدنية" وتوالي، التفتيش وتتابع الإملاء، مندبل، سلسلة مفاتيح، ساعة يد